* **المحور السابع:** مستقبل اللغة العربية: التحديات والآفاق.

ولقد بلغ عدد المداخلات التي وصلت الندوة حوالي مائة مدخلة، جاءتنا من معظم الجامعات الجزائرية ومن مختلف أنحاء العالم العربي الإسلامي من المغرب، من موريتانيا، من مصر، ومن سوريا، ومن الأردن، ومن السعودية، ومن قطر، ومن فرنسا، ومن تركيا، ونحن إذ لم نستطع برمجة كل المداخلات لأسباب مختلفة فإننا نعد الجميع بأننا سنعمل على نشرها في مجلة المعهد على غرار الندوة الماضية.

أيها السادة:

إذا كنا قد استطعنا أن ننجح كل مرة في إقامة هذه التظاهرة العلمية، فإن ذلك قد تم بفضل الله وبفضل رجال وهيئات قدموا لنا الدعم المادي والمعنوي، وفي هذا الصدد، أود أن انقدم بخالص الشكر الجزيل إلى السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي على المساعدات المادية والمعنوية والمتمثلة على الخصوص في إتمام أشغال هذا المدرج الشيخ مهدي بوعبدلي.

كما نشكر السيد وزير الشؤون الدينية على المساعدة المالية التي ساهم بها في إنجاح هذا الملتقى ونشكر السيد والي ولاية وهران على الدعم الذي ما فتئ يقدمه لنا.

نشكر السادة مسؤولي الأمن ورجاله على الرعاية الكاملة التي يحيطوننا بها.

نشكر رجال الإعلام على الاهتمام الكبير والحضور المستمر.

أشكر زملائي رؤساء المؤسسات الجامعية وخصوصا جامعة السانيا على الدعم المادي والمعنوي.

نشكر أبناءنا الطلبة على حضورهم وحماستهم.

نشكر أساتذة المعهد والعمال على سهرهم وتجندهم لإنجاح هذه الندوة.

والله ولي التوفيق

والسلا عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

مستقبل البحوث العلمية في اللغة العربية وضرورة استثمار التراث الخليلي

أ.د/ عبد الرحمن الحاج صالح
أستاذ بجامعة الجزائر ومدير
مركز البحوث العلمية والتقنية في
اللغة العربية - الجزائر -

ازدهرت البحوث اللغوية الحديثة بفضل ما وضعه العلماء من نظريات عميقة حول اللغة وبفضل ما تحاوله هذه البحوث من استثمار واسع لهذه النظريات. ومستقبل كل البحوث اللغوية مرهون، في اعتقادنا، بمدى نجاح هذا استثمار بالنسبة لكل لغة. والذي نريد أن ينتبه إليه إخواننا الباحثون هو وجود نظرية استخرجها بعض الباحثين الجزائريين مما أخرجه علماء النحو الأولون. وبنيت هذه النظرية على عدد من المفاهيم والتصورات قد لا يوجد في اللسانيات الحديثة ما يماثلها بل وقد تفوقها إلى حد بعيد وهذا ما حاولنا أن نبرهن على صحته بتحرير هذه النظرية وصياغتها صياغة منطقية حتى يمكن أن بينها وبين النظريان الحديثة.

أما استثمار هذه الأقوال العلمية في عصرنا هذا فميدان واسع جدا. وتجري الآن في المركز الذي أتشرف بتسييره بحوث في استغلال مفهوم المثال وماله علاقة به في وضع طرائق تعليمية تكون أنجع مما هو موجود الآن في تعليم القواعد النحوية الصرفية. وكذلك في الميدان التكنولوجي فأحوج الناس إلى نظرية لغوية تستجيب لمتطلبات الصياغة الرياضية هم الباحثون في علم الحواسيب. وهذه النظرية هي بالنسبة للغتنا تلك التي استخرجناها من أقوال القدامى وتحليلاتهم لأي عالم قديم بل هؤلاء الذين أبدعوا مفاهيم النحو العربي ومنهجية التحليل اللغوي الأصيل.

I. إعادة الاعتبار لما أبدعه النحاة الأولون

1ـ لا يكوّن التراث العلمي العربي عبر الزمان كلا منسجما:

يعتقد الكثير من الناس في زماننا أن ما ورثناه عن أجدادنا من التراث العلمي والفكري عامة يتساوى بعضه ببعض من جميع النواحي وإن كان بعض الباحثين على يقين أن المبدع من الأفكار في الميدان العلمي ليس مثل ماهو موروث بالتقليد وحتى هؤلاء الباحثون إن لم يكونوا ممن تعمق في فهم هذا التراث من جهة وتعمق في فهم الاتجاهات العلمية الحديثة من جهة أخرى فيستحيل عليهم أن يميزوا بين ما أبدعه العلماء الأولون وأخص بالذكر العلوم الإنسانية وبين ما صار إليه هذا التراث بعد القرن الخامس الهجري. وهناك أسباب كثيرة أدّت إلى التسوية بين كل ذلك. منها أولا هذه المعرفة السطحية للتراث وللمفاهيم العلمية الحديثة بما فيها العلوم الدقيقة وعلم المعرفة العلمية (الابستمولوجية) وثانيا: استغلاق ما تركه الفطاحل من علماء الصدر الأول على افهام الكثير من المتأخرين والمحدثين (وقد يكون ذلك مسببا بالسبب السابق) ثالثا: الخضوع المطلق لما قاله الغربيون في القرن الماضي (حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين) أن تطور المعرفة هو خطي تسلسلي: من البدائي إلى ماهو أرقى منه (أغوست كونت الفرنسي) وهذا غير صحيح بالنسبة إلى الفكرة العلمية الواحدة لأن الرقي العلمي قد يتحقق عند قوم فجأة في وقت ما لبعض الأسباب ثم يتوقف عندهم الإبداع وتختفي بعض الأفكار ثم يكتشفها غيرهم من جديد ربما في إطار تاريخي آخر وتصور آخر عند غيرهم بعد زمان وقد يكون طويلا.

2ـ قيمة التراث العلمي اللغوي العربي الأصيل:

فهذا النوع من الأفكار العلمية التي قد يصيبها الاندثار الكامل وجدناه بالنسبة لعلوم اللسان من حسن الحظ فيما تركه لنا النحاة العرب الأولون أمثال الخليل بن أحمد وشيوخه وزملاؤه وأتباعه وسيبويه خاصة. فلولا كتاب

سيبويه لما كنا نستطيع أن نعرف إلى أي درجة من العمق العلمي بلغت هذه الأفكار وذلك لغزارة ما يحتوي عليه الكتاب من المعلومات وكذلك ما وصل إلينا من الشروح الضخمة للكتاب. وقد يتعجب من يقرأ أو يسمع ذلك من أن يكون النحو العربي الذي أبدعه هؤلاء في المستوى العلمي الذي بلغته اللسانيات الحديثة أو يفوقه من بعض الوجوه بعد أن مضي عليه أكثر من ألف سنة. فزيادة لما قلناه من أن الكثير من الأفكار العلمية قد تمضي عليها قرون وهي مختفية حتى تأتي حضارة أخرى تكتشفها من جديد وذلك مثل فكرة كروية الأرض ودورانها حول الشمس (عند اليونان قبل بطليموس) والدورة الدموية الجزئية عند ابن نفيس وقوانين تطور الحضارات عند ابن خلدون والبنوية اللغوية عند علماء الهنود في القرن الرابع قبل الميلاد وغير ذلك. وقد تكون بعض هذه الأفكار قد اطلع عليها من نسبت إليه من المحدثين وقد يسكت عن المصدر الذي استقى منه. وذلك مثل مخترع الجبر المزعوم (في أوربا) أو حساب المثلثات وغير ذلك كثير.

3ـ الخليل بن أحمد لغوي رياضي التفكير:

والذي جعلنا نفكر في "حداثة" أفكار النحاة الأولين ممن عاصر الخليل وأتباعه وأصالتها خاصة (لأننا لا نزعم أبدا أنها مطابقة لأفكار علماء اللسانيات) هما شيئان اثنان: أولا الفوارق الكبيرة جدا التي تفترق بها أفكار أولئك النحاة عن الأفكار النحوية العربية التقليدية (مثل ما نجده عند ابن مالك مثلا وشروح مؤلفاته). فالتصور العلمي يختلف فيهما تماما وأما الثاني فهو ما أجمع عليه الناس في وقتنا: فقد لاحظ كل معاصرينا أن الأفكار الأساسية التي بني عليها التحليل عند الخليل هي رياضية محضة. فهذا شيء لا يتفق مع ما يتصوره اللسانيون في وقتنا الحاضر: فإن كان النحو العربي في زمان الخليل وسيبويه بدائيا بالنسبة للسانيات الحديثة فما هذا الاتجاه الرياضي الذي أجمع معاصرونا على الاعتراف بوجوده عند الخليل؟ ثم لتنظر إلى هذا الذي يقال أنه نزعة رياضية ماهو.

II. التحليل النحوي العلمي عند الخليل وأتباعه:

1ـ المستوى الأدنى من اللغة والتحليل العمودي وهو خاص بالعرب:

لاحظ بعض الباحثين أن كتاب العين قد بني على فكرة استفراغ جميع التراكيب التي تحتملها الحروف الصوامت العربية غير المزيد فيها: الثنائية والثلاثية منها وهذا كان يسمى عندهم بقسمة التراكيب (في الرياضيات الحديثة Combinatoire). وقال الخليل بهذا الصدد: «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو قد ودق. والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه وتسمى مسدوسة وهي نحو ضرب، ضبر، برض، بضر، رضب، ربض. والكلمة الرباعية تتصرف على 24 وجها وذلك أن حروفها وهي 4 أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي 6 أوجه فتصير 24 وجها يكتب مستعملها ويلغى مهملها... والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها وذلك أن حروفها وهي 5 أحرف تضرب في وجوه الرباعي وهي 24 حرفا فتصير 120 وجها يستعمل اقله ويلغى أكثره (العين 1، 66-65).

بهذا صار الخليل أول من أقام أسس الجبر التركيبي فقد وضع مفهوم ما يسمى الآن العاملي ورسم دائرة تمثل جميع احتمالات التركيب للثلاثي طرداً وعكسا وهذا يسمى في الوقت الحاضر بالزمرة الدائرية (Cyclic Group). أنظر الجداول التالية:

! X 2 = 2 = 21

! X 2 X 3 = 6 = 31

! X 2 X 3 X 4 = 24 = 41

! X 2 X 3 X 4 X 5 = 120 = 51

الثنائي: A = 28 X 27 = 756

الثلاثي: A = 28 X 27 X 26 = 19,656

الرباعي: A = 28 X 27 X 26 X 25 = 491,400
الخماسي: A = 28 X 27 X 26 X 25 X 24 = 11,793,600

ن ! (= ن x (ن - 1) !

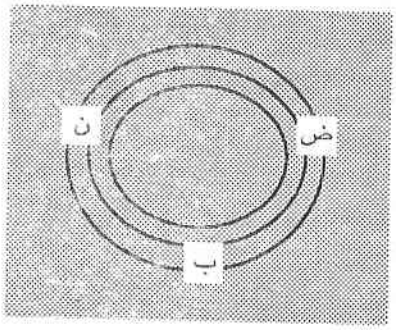

2ـ مستوى الكلمة ومثالها والمثال مفهوم خاص بالعرب:

أما في المستوى الذي هو أعلى من المادة الأصلية فإن هناك قسمة تركيبية أخرى من نوع آخر وهي أعمق مما سبق وهو مستوى التركيب بين المادة الأصلية للكلمة وبين وزنها أو بنائها أو مثالها وهذا التركيب هو ناتج عما يسمى الآن في الرياضيات بالجداء الديكارتي وهو عبارة عن مصفوفة ذات مدخلين: بالنسبة للثلاثي: كل الحركات مع السكون أفقيا والحركات وحدها عموديا ويتمثل كالتالي:

الجداء الديكارتي وقسمة تراكيب الثلاثي

ف ↓ / ع →	فتحة	ضمة	كسرة	∅سكون
فتحه	فَعَل	فَعُل	فَعِل	فَعْل
ضمة	فُعَل	فُعُل	فُعِل	فُعْل
كسرة	فِعَل	فِعُل	فِعِل	فِعْل

فهذا التصور للتركيب الداخلي للكلمة في هذين المستويين: حروف المادة الأصلية ثم مستوى الوزن مع هذه المادة ما كان يمكن أن يحصل إلا بتحصيل عملية أخرى وهي تحليل الكلام إلى هذه المادة وإلى وزن الكلمة وهي عملية تجريدية عميقة جدا ترتقي إلى أعلى درجات التحليل الرياضي لأنها - ولأول مرة في تاريخ العلوم - تحليل عمودي لا يخضع لتسلسل الكلام المنطوق كما هو الحال في اللسانيات البنوية الغربية الحديثة: فالجدير بالذكر هو أن مفهوم الجذر قد استعاره الغربيون من اللسانيات الهندية القديمة (وبلا شك من النحو العربي أيضا) أما مفهوم مثال الكلمة أو وزنها وبناؤها فهو مفهوم عربي أصيل ولا يوجد ما يماثله إلى الآن في اللسانيات الحديثة [1] ولابد من أن ندرك ذلك جيدا فإن التحليل الغربي يتبع تسلسل اللفظ فهو يحاول أن يكتشف القطع الصوتية التي تتألف منها الكلمة فيقسم هذه القطع إلى جذر وما يزاد عليها من السوابق واللواحق. فهذا لا يمكن أن ينطبق هو وحده على العربية لأن تحويل الكلام من المفرد إلى جمع التكسير مثلا أو من فعل مجرد إلى مزيد وغير ذلك لا يمكن أن يحلل تحليلا أفقيا فقط: فخذ كلمة "كُتُب" كجمع لكتاب: أين هي القطعة الصوتية التي تدل فيها هي وحدها على الجمع؟

3- استنباط البنى أو المثل بالقياس:

أما العملية التجريدية التي أشرنا إليها والتي يتم بها استنباط الجذر من جهة والوزن من جهة أخرى فهي القياس ولا يمت هذا القياس العربي لأصيل إلى قياس أرسطو بسبب على الإطلاق لأنه كما يقول الأصوليون: «حمل شيء على شيء لجامع بينهما». فالقياس عند النحاة هو أن تحمل كل ما ينتمي إلى جنس أو فئة معينة من العناصر اللغوية بعضه على بعض حتى يمكن أن يتضح تكافؤها في البنية. وذلك مثل الفعل الماضي من الثلاثي المجرد الأجوف فكل الكلمات التي تنتمي إلى هذه الفئة من جهة وتختلف في الوقت نفسه بمادتها الأصلية تحمل بعضها على بعض، كل عنصر فيها إزاء نظيره من الكلمات الأخرى حتى يظهر تكافؤها (= تناظرها) ويتم بذلك استنباط المثال (وهو

تجريد بناء) الذي يجمعها (الجامع) أي البنية المجردة التي تمتاز بها هذه الفئة عن غيرها. فهذا بعيد جدا عن العملية التجريدية الخاصة بالبنوية. فهذه تكتفي باستبدال قطعة صوتية لا يعرف هل هي وحدة دالة (مورفيم) بقطع أخرى سبق أن عرفت ماهيتها فإذا استقام الكلام حكموا عليها بأنها تنتمي إلى جنس كذا. فهذا تجريد بسيط لأنه يكتفي فيه باكتشاف الانتماء بالجنس والفصل ولا يعرف فيه الانتماء بتكافؤ البناء فالقياس هو تطبيق مجموعة على أخرى بالنظير (Bijection) والنتيجة كما قلنا هو تكافؤ البناء (Isomorphisme).

4ـ مفهوم اللفظة كوحدة قابلة للامتداد وهو خاص بالعرب أيضا:

أما في مستوى أعلى من الكلمة فليس هو الجملة المفيدة كما يعتقده اللسانيون الغربيون والمتأخرون من النحاة العرب. فعناصر الجملة من حيث اللفظ لا تتكون من كلمة مفردة بل من مجموعات من الكلام قد تكون فيها كلمة مفردة. فما يسميه سيبوية المبتدأ والخبر والفعل والمفعول وغير ذلك وهي المكونات اللفظية للجملة لا تحتوي بالضرورة على كلمة مفردة وذلك لسببين: الأول هو أن الاسم هو النواة الاسمية مثل "كتاب" وكذلك ما يدخل عليها من الزوائد كأداة التعريف وحرف الجر من اليمين والإعراب والتنوين والمضاف إليه والصفة من اليسار. فكل هذه المجموعة تكوّن الاسم لأن الاسم المفرد والاسم مع الـ أو مع حرف الجر وغير ذلك هي وحدات متكافئة في مستوى الجملة: كلها يمكن أن تقع في موضع الخبر أو المفعول مثلا (بشروط معلومة). وكذلك هو الفعل: لا يأتي إلا ومعه زوائده (وهو لا يفارق الفاعل). وكل ذلك كان يكتشفه النحاة الأولون بحمل الجمل بعضها على بعض إلا أنهم ينطلقون في هذا المستوى من أبسط الجمل وهي التي تتركب من عنصر واحد وهي الاسم المفرد أو الفعل مع ضميره المرفوع أي «أقل ما يتكلم به مفرداً أو ما يمكن» أن ينفصل ويبتدأ «على حد تعبير سيبويه وذلك هو الاسم الظاهر أو هذا الفعل في عبارة مثل: "كتب" أو "رسالة" في جواب لسؤال مثل: ما إذا فعلت؟ أو ماذا كتبت؟

فهذه الوحدات (اصطلحنا على تسميتها باللفظة وأخذنا ذلك من الرضى) تجهلها اللسانيات الغربية الحديثة فيما اشتهر منها لأنها لا تعرف في وضعها الحالي إلا الوحدات المقطعة أي القطع الصوتية التي لها بداية ونهاية ليس غير. وذلك مثل الكلمة المفردة أما الوحدات القابلة للامتداد أو التقليص حسبما كان يتصوره الخليل وسيبويه (مثل الاسم عندما يتصرف فيه المتكلم) فلا سبيل وجودها عند الغربيين ومن اتبعهم (ولا يوجد أيضا عند المتأخرين من النحاة العرب). وتجدر الاشارة إلى أن التصرف في الكلمة طردا وعكسا (من الأصل إلى الفروع والعكس) يؤدي الباحث إلى اكتشاف ما يسميه النحاة "بالمواضع". فالموضع عند العرب هو من أهم ما وضعوه من المفاهيم العلمية: وهو موضع العنصر اللغوي في بنية الكلام أو الكلمة أي في المثال المجرد لا موقعه الحقيقي في مدرج الكلام. ولهذا فالموضوع قد يكون فارغا وذلك مثل الابتداء الذي هو الخلو من العامل الملفوظ في الاسم المبتدأ (وليس معناه بداية الجملة) وكالضمير المستتر الذي هو الخلو من ضمير ملفوظ وغير ذلك. فالموضع شيء وما يمكن أن يحله شيء آخر.

5ـ مستوى التراكيب ومفهوم العمل أخذه الغربيون من العرب قديما وحديثا:

أما في المستوى الذي هو أعلى من اللفظة وهو الجملة المفيدة فإن النحاة اكتشفوا فيه عناصر أكثر تجريدا وهي العامل والمعمول الأول والمعمول الثاني وتكوّن هذه العناصر المجردة النواة التركيبية ويضاف إليها عناصر مخصصة. وكل واحد منها يمكن أن يحتوى على كلمة مفردة أو لفظة أو حتى تركيب مثل عامل ومعمول. فالعامل يمكن أن يكون فعلا غير ناسخ أو ناسخ أو "إن" وأخواتها أو اسما يعمل عمل فعله والمعمول الأول يمكن أن يكون مجرد مبتدأ (وعاملة الابتداء) أو اسما لفعل ناسخ أو غير ناسخ أو "إن" وأخواتها والمعمول الثاني خبرا أو مفعولا به. أما المخصصة فهي الحال والتمييز والمفاعيل والمستثني الفضلة. وهذا يعني أن موضع الابتداء والفعل واحد وموضع الخبر

والمفعول به واحد من الخلاف الشديد الذي يوجد من الناحية الدلالية لهذه العناصر وسنرى فيما يلي ماهي فائدته.

ويمكن أن تصاغ هذه الوحدة التركيبية المجردة هكذا:

$$[(ع \dashrightarrow م1) \pm م2] \pm خ$$

العين هي العامل والسهم يدل على وجوب تقديم العامل على معموله الأول وهما يكوّنان بذلك ما يسمى في الرياضيات الحديثة بالزوج المرتب ثم يأتي المعمول الثاني وقد لا يكون وجود له ثم قد يضاف إلى هذه المجموعة مخصص واحد أو أكثر [2].

III. التحليل الدلالي أو ميدان المعاني:

إن العلماء العرب الذين أبدعوا في ميدان الدلالة والمعاني هم النحويون البلاغيون أولا ثم المفسرون والأصوليون. أما النحاة في عهد الخليل وسيبويه فإن أصلا خطيرا جدا قد سطره هذان العالمان وهو التمييز الصارم بين الوضع والاستعمال أي بين ما يرجع إلى اللفظ من صيغة ومدلول وما يرجع إلى استعمال هذا اللفظ ومدلوله في واقع الخطاب. فكل واحد من هذين الميدانين له قوانينه وضوابطه الخاصة. وقد بين ذلك سيبويه في كتابه في مناسبات كثيرة وخاصة في إقامته الفرق بين دلالات الفعل اللفظية ودلالته العقلية يقول: «الفعل... إنما يذكر ليدل على الحدث... وإذا قلت: ضرب عبد الله لم يستبن أن المفعول زيد أو عمرو وقال بعضهم: ذهبت الشام... وهذا شاذ لأنه ليس في ذهب دليل على الشام وفيه دليل على المذهب والمكان (الكتاب، 1، 16-15). ومعنى ذلك أن للفعل دلالة على الحدث بلفظه (وكذلك الزمان) وليس فيه دلالة على مكان معين بل كما يقول: «فقد علم أن للحدث مكانا وان لم يذكره». فهذه دلالة عقلية غير لفظية. وهناك دلالة أخرى هي دلالة الحال ودلالة مقالية أو بالقرينة وهي أيضا غير لفظية. كما فرق سيبويه في أول كتابه بين المستقيم الحسن

والمستقيم القبيح من جهة والمحال من جهة أخرى وهو تمييز أولا بين اللفظ السليم من حيث اللفظ وغير السليم وثانيا بين المعنى السليم والمعنى غير السليم أي الذي لا يستقيم عقليا (الكتاب 8/1) [3].

وقد بنى عبد القاهر الجرجاني كل كتابه "دلائل الإعجاز" على هذا التمييز وهذه الفكرة. ولم يتفطن إليها الغربيون بالنسبة إلى اللغات الأوروبية إلا في عهد قريب (منهم Benveniste ثم Jean Gagnepain أخيرا). فدراسة الاستعمال الحقيقي لنظام اللغة (أي اللفظ ببناه المتنوعة) يرجع الفضل في بسطه وتوسيعه إلى البلاغين النحويين أمثال عبد القاهر والزمخشري وأتباعهما وهي دراسة عظيمة لو درست من جديد بالمناهج العلمية لعاد ذلك بالنفع العميم.

أما المفسرون البلاغيون فمنهم الزمخشري الذي ذكرناه وأقدمهم هو أبو عبيدة في "مجاز القرآن" فقد تتبع أساليب القرآن وقارن فيما بينها وبين ما وجده في كلام العرب.

أما الأصوليون فهم الذين وضعوا أسس الدلالة غير اللفظية أي ما يسمى بالـ Sémantique عند الغربيين في مقابل الـ Sémiologie عند Benveviste. وهو شيء عظيم جدا إلا أنه أصبح نسيا منسيا وقد حاول بعض الطلاب دراسة هذا العمل الضخم إلا أن أكثرهم قد أخطأوا الغرض إذ لم يتزودوا بما يجب في مثل هذا النوع من التراث الأصيل ولم يحاولوا أن يتجردوا إما من المفاهيم والتصورات التي ظهرت عند المتأخرين من العلماء الذين غزاهم منطق أرسطو (ابتداء من الغزالي وإمام الحرمين) وإما من التصورات التي أخذها بعضهم من الغرب فأرادوا أن يطبقوها كما هي على العربية.

وهذا الميدان يحتاج في نظرنا إلى بحث كامل على حدة ولهذا سنكتفي بهذه العجالة في تطوير هذا الجانب الهام من الدراسة اللغوية.

IV ـ استثمار النظرية اللغوية العربية الأصيلة:

إن الجهود التي بذلناها منذ أكثر من 40 سنة لفهم ما يقوله الخليل وأتباعه قد أدتنا إلى الحكم بأن أكثر ما أبدعه هؤلاء العلماء قد اختفي واستغلق فهمه على المحدثين وأن خطورة هذا التراث الخليلي العظيم هي على قدر خطورة ما سيصير إليه مستوانا العلمي واتجاهنا الفكري. فإما أن نبقى عالة على تراث المتأخرين كما هو الحال في الوقت الحاضر ويستمر تجاهلنا للنحاة الأولين بل وجهلنا المطبق لمفاهيمهم ومنهجيتهم مع التقليد الأعمى لا لهؤلاء المتأخرين فقط بل أيضا لما يقوله اللسانيون الغربيون بدون أي تمحيص وإما أن نحاول المقارنة التقويمية العلمية بين كل هذه الاتجاهات بقصد الوصول إلى مفاهيم دقيقة أصيلة ذات نجاعة كبيرة في الميدان العلمي والتكنولوجي. وهذا الاختيار الأخير هو الذي اختارته ما يسمى في زماننا بالمدرسة الخليلية الحديثة: وتتمثل الأعمال التي تقوم بها أساسا في برامج البحث التي هي بصدد الإنجاز في المركز الذي أتشرف بتسييره. فمن بين الميادين التي يحاول الباحثون الجزائريون أن يستثمروا فيها النظرية اللغوية العربية الأصيلة يمكن نذكر:

ـ ميدان علوم اللسان:

يمكن للنظرية اللغوية العربية أن تلعب دورا كبيرا في الدراسة العلمية للغات بما فيها اللغة العربية لأنها وإن كانت نتيجة للنظر في العربية فإن عمقها العجيب يجعلها في مستوى النظريات اللسانية الحديثة وسيلجأ إليها لتفسير الكثير من الظواهر اللغوية.

فقد سبق أن رأينا أن للكلمة العربية مُثُلا (أو صيغا) ولكل واحد منها مدلول أو أكثر. وتوجد في اللغات الجرمانية ومنها الانكليزية كلمات تتصرف في باطنها مثل الكلمة العربية: وذلك: Child وجمعه Children وman وجمعه men وكذلك تصاريف الفعل في الإنكليزية والألمانية أكثرها ينتقل من مدلول

إلى آخر لا بزيادة لاحقة فحسب بل بإعادة بناء الكلمة على بناء آخر. وهذا لا تستطيع اللسانيات أن تفسره إلا بشيء كثير من التعسف. وقد بدأ بعض الباحثين في النظر في هذه الظواهر باختبار النظرية العربية (على شكل رسائل جامعية عندنا في المركز وفي معهد اللغة العربية في جامعة الجزائر).

أما اللسانيات العربية التي تنزع هذه النزعة فقد وصل البحث فيها الآن - وبعد التحليل والتحديد لكل مفاهيم القدامى - إلى مرحلة الصياغة المنطقية الرياضية من جهة وإلى حصر كل الاحتمالات الدلالية التي يحتملها المثال في جميع مستويات العربية (من الكلمة إلى اللفظة إلى التراكيب). وسيكون لهذا العمل فيما أعتقد مستقبل زاهر.

- ميدان تعليم اللغات:

1- التمييز بين ملكتين:

كشفت لنا هذه النظرية أن اللغة لا تكتسب الملكة فيها إلا إذا ميز الملقنون بين جانبين اثنين من الملكة: الوضع والاستعمال فالملكة اللغوية على هذا هي ملكتان: القدرة على التعبير السليم والقدرة على تبليغ كل الأغراض الممكنة في أحوال خطابية معينة. ولكل واحدة منها قوانين تختص بها. وهذا قد اكتشفه علماء الغرب منذ عهد قريب جدا. ومن تبعات هذا التمييز هو الاهتمام بكلتا الملكتين وألا تطغى إحداهما على الأخرى.

2- اكساب ملكة السلامة اللغوية: (بعبارة المحدثين: القواعد والمعجم) يبنى على إحكام التصرف في مُثُل اللغة (أي في مثال اللفظة ومُثُل التراكيب وغيرها).

وهذا التصرف يكون بإكساب القدرة على الانتقال من الأصل إلى الفروع والعكس وبالقدرة على ملء كل خانة من خانات المثال بمحتوى من الوحدات اللغوية يقتضيه المثال نفسه.

فخذ مثال اللفظة فهي عبارة عن أصل تتفرع عليه كل الفروع التي

تقتضيها اللفظة الاسمية أو الفعلية وإحكام التصرف فيها معناه الإحكام في التطبيق للمئات من القواعد بعد أن يتم الاكتساب له وهذا قد يتم في وقت قصير بالنسبة للدرس النحوي العادي الذي ينطلق من القاعدة وتطبيقها أو العكس.

أما إكساب القدرة على التبليغ فسر النجاح فيه يكمن في التصرف في البنى والمثل بما يقتضيه المقام (أو حال الخطاب) فالانتقال من غرض إلى آخر (وهذا يقتضي حصر هذه الأغراض) مع التصرف في محتوى المُثُل يضمن أيضا اكتساب هذه الملكة في وقت أقصر بكثير من تطبيق قواعد النحو والبلاغة.

وقد يحاول الباحثون عندنا أن يضعوا الطرائق التعليمية بالاعتماد على النظرية الخليلية وقد انتهوا من وضع أول طريقة للجامعيين الجزائريين الذين لا يتقنون العربية. ولا بد من التنبيه أن هذا الاستثمار يمكن أن ينطبق على ميادين مختلفة مثل شرح النصوص وتحرير المقالات وبصفة عامة التعبير والفهم الشفاهي والكتابي.

وقد اقترحنا على وزارة التربية في الجزائر وعدة قطاعات أخرى برنامجا لتكوين أخصائيين في تعليم العربية بهذا الاتجاه وبرنامجا آخر لتطوير معلومات المعلمين والأساتذة في هذا الميدان.

ـ ميدان علاج اللغة بالحاسوب:

إن التحليل العربي للكلمة العربية إلى مادة أصلية وصيغة (أو مثال) سيساعد المهندسين اللسانيين [4] في وضع برمجيات لعلاج المفردات بالحاسوب: حصر كل الصيغ بمدلولاتها من الاستعمال الحقيقي للغة: تصنيف الكلمة في شبكات دلالية منتظمة وحصر بالتالي للمترادف والمشترك وغير ذلك. والحصر لمدلولات الصيغ سيسهل الوضع للمصطلحات العلمية والتقنية لأنه سنعرف حينئذ ماهي الصيغ التي تدل على ما تدل عليه السوابق واللواحق العلمية التي تستعمل في العلوم باللغات الأجنبية (مفهوم الفعل الذاتي مثلا (auto) = فَعال ومفهوم الكتلة = فُعلة وغير ذلك). وسيحل بذلك مشكل عويص

في وضع المصطلحات العلمية.

أما في مستوى اللفظة ثم التراكيب فيمكن أن توضع برمجيات تعليمية (didacticiels) خاصة بالتمارين اللغوية: اللفظة، مثلا، هي شبكة من المواضع لها حراكية وشكلها هو شكل الزمرة في الرياضيات وقد بين العالم السويسري (Piaget) ما للزمرة من القوة في إحداث العمل المحكم إذا ما اكتسب الطفل أواي متعلم التحكم في التصرف فيها. فالانتقال من الأصل إلى الفروع طردا وعكسا والتصرف في المتغيرات التي يمكن أن تملأ هذه الشبكة البنوية يؤدي حتما إلى إحكام كبير جدا في التصرف في البنى اللغوية.

هذا ويمكن أن يستثمر مثال اللفظة والمثل التركيبية في الترجمة الآلية وإن كان هذا هدفا لا يزال بعيدا لأنه يحتاج فيه الباحث أن تكون جميع هذه المثل مصوغة صياغة منطقية رياضية كما قلنا ثم يحتاج أيضا أن تحصر له كما سبق أن ذكرنا جميع الاحتمالات الدلالية لكل مثال. ونحن سائرون في هذا المسلك العلمي.

ـ ميدان الإتصال العادي والمَرَضي:

هذا وللخليل بن أحمد تحليل عظيم يخص أصوات اللغة وقد بنى كل ذلك على أساس مفهوم المثال ومفهومي الحركة والسكون. أما المثال فقد وضع صيغة للنظام الصوتي هو إلى حد بعيد مصفوفة بالمعنى الرياضي لها مدخلان: المخارج والصفات. ثم لاحظ أن حراكية الكلام ناتجة عن توالي الحركات والسكنات أي من حركات عضوية وهوائية صوتية تحدث الحروف وتصلها بالتي تليها وسكنات عضوية أي إيقافات للهواء الصائت، توقف هذه الحركات. وهذا أقرب إلى التحليل الصوتي الذي ظهر عند المهندسين منه إلى التحليل اليوناني التقليدي الذي يقطع الكلام إلى مقاطع والمقطع إلى صوامت ومصوتات. فهذا تحليل صحيح لكنه غير كافٍ لأنه غير حراكي ولا يمكن أن يستغل في تركيب الكلام الاصطناعي ولا في التعرف الآلي على الكلام.

فاستثمار هذه المفاهيم العربية ممكن جدا وقد أخذنا على عاتقنا ذلك في المركز.

- وهناك ميدان آخر مهم جدا وهو ميدان الاضطرابات التي تصيب الإنسان في كلامه بسبب آفة في جهاز نطقه أو ما يسمى عند الأطباء الآن بالحبسة (aphasie) وتسبّبها إصابة في جهة معينة من الدماغ من تلك التي تتحكم في إحداث الكلام. وأهمية الحبسة كبيرة جدا بالنسبة للدراسة العلمية للغة. لأن الحبسة هي في الحقيقة العجز عن أداء جانب واحد من فعل الكلام كالقراءة، دون الكتابة أو العكس أو العجز عن التركيب السليمُ في مستوى الكلمة أو الجملة مع بقاء الفهم أو العجز عن الإتيان بالكلمة أو التركيب الذي يناسب معنى من المعاني أو عدم القدرة على فهم بعض العبارات مع القدرة على تعرفها في صورة مثلا. فكل هذا هو عبارة عن انفكاك القدرات الكلامية وفي نفس الوقت فقدان التحكم في مُثُل اللغة لأن المثال كما فسرناها هو بنية حراكية لأنه مولد للعبارة فإذا فقد التحكم في التصرف في أحد مكوناتها ظهر في المصاب نوع من العجز عن الكلام.

وتجري بحوث في مركزنا لاستثمار النظرية العربية لوضع طريقة طبية خاصة للكشف عن هذه الأنواع من العجز ثم لعلاجها.

إن هذا الذي ذكرناه من محاولة الاستثمار للنظرية اللغوية العربية هو قليل من كثير وذلك لعمقها واتساع إمكانياتها التفسيرية والتطبيقية وهذا لا يمكن أن يفسر إلا بالاقتناع أن النحاة العرب الواضعين للنحو وعلوم اللغة كانوا قد سبقوا زمانهم بسبب الاتجاه التجريبي الرياضي الذي اتصفوا به إلا أن هذه الميزة العلمية بقيت إلى الآن عند الكثير شيئا مبهما ولهذا ينبغي، في اعتقادنا، أن نشجع كل محاولة ترمي إلى النهوض بالبحوث العلمية التي تكون امتدادا للبحوث القديمة مع اعتبار كل ما طرأ من جديد يمكن الاستفادة منه.

المصادر والمراجع

-1 أما المستشرقون اللغويون فأخذوه من العرب وأول من سماه Schème هو J.Cantineau.

2- قد تطرقنا إلى ذلك في الكثير مما نشرناه وخاصة في البحث: "المدرسة الخليلية الحديثة" الذي قدمناه في ندوة الكويت في الحاسوبيات اللغوية في 1989 وكذلك في كتابنا: اللسانيات العربية واللسانيات العامة.

3- ويكثر سيبويه الكلام عن الدلالة دون أن يخلط بين هذه الدلالات المختلفة.

4- أي الذين درسوا اللسانيات العامة والعربية زيادة على تخصصهم وقد فتح من أجل ذلك تخصص في ماجستير علوم اللسان التي ينظمها المركز تحت إشراف المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية.

أثر الدراسات القرآنية في النقد العربي الحديث

أ.د/ بكري عبد الكريم
عميد كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران

قد يوافقني أغلب المهتمين بشؤون الأدب عندما أجد أن النص الأدبي يعيش في عصرنا هذا أزهى أيامه إذ أصبح ملتقى الدراسات والمعارف ومنطلق التوجهات والنظرات والفروض المختلفة التي يقدمها الفكر عن ماهية الأدب وعلاقته بالحياة. وقد كان من نتائج هذا الكشف الجديد (أو القديم المتحدد على نحو ما سنرى) أن تكشفت أسرار عالم النص وتمتع الناس بذخائره، وكنوزه، وبما كان يخبئه من جمال وقيم.

وبقدر ما تقلصت الهالة النقدية والمعرفية التي كانت تحيط بعالم الأديب الشخص بقدر ما تعددت دواعي التواصل مع ساحة النص بفضل ما يثيره فينا من استجابة وحس وشعور ومتعة متجددة وقد نرى أن هذا الاحتفال الكبير بالنص ليس جديدا كل الجدة على ثراتنا الأدبي، فلقد ظل النص الأدبي قيمة رفيعة متميزة في الحياة العربية وأهم مظهر من المظاهر الحضارية التي تميز البيئة العربية قبل الإسلام بالخصوص.

ولقد سبق وأن قلنا في دراسة سابقة أن الطريق المؤدي إلى كثير من القيم الإجتماعية والفلسفية في الحضارة العربية الإسلامية لا يمكن إلا أن يكون طريقا نصيا [1] وبسبب من ذلك، أي بسبب اعتدادهم واعتزازهم بفنون القول وبلاغة القصد لم يتحداهم القرآن (وقد تضمن كثيرا من المعجزات المعرفية) في شيء آخر غير مما يتقنونه من فنون القول وبلاغة الكلام.